مجلة تدبر

أولاً: البُحُوث

مجلة تدبر

البحث الأول :

إعجاز القرآن عند عبد الحميد بن باديس جمعًا ودراسة

أ . نبيل بن أحمد بلهي

باحث متفرغ بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - الجزائر

- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين – جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - الجزائر ، بأطروحته: طعون المعاصرين في أحاديث الصحيحين بدعوى مخالفة القرآن (دراسة نقدية).
- يناقش رسالة الدكتوراه من كلية أصول الدين - جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - الجزائر ، بأطروحته: مسالك نقد المتن عند نقاد الحديث في القرن الثالث الهجري.
- له من الأبحاث: «التعقبات على ما أورده المستشرق شاخت في ترجمة الإمام مالك من دائرة المعارف الإسلامية» (بحث محكم منشور)، «شبهات المعاصرين حول حديث (لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم) - عرض ونقد» (بحث محكم منشور)، «الأسس الأخلاقية لإدارة أجور العمال في السنة النبوية وأثرها في سوق العمل» (بحث محكم منشور)، «تحقيق كتاب (الورع) لعبد الملك بن حبيب الأندلسي ٢٣٨هـ» (قيد الإعداد).

ملخص البحث

لما كان القرآن الكريم معجزة علمية خالدة تَدُلُّ على مصدرِهِ الربَّانِي، اجتهد ابن باديس في استنباط أوجه إعجاز القرآن الكريم أثناء تفسيره، ليعزِّزَ الثقة في نفوس المؤمنين بكتاب الله وعلومه، في زمن شاع فيه الانبهار بحضارة الغرب الماديَّة، فجاء هذا البحث ليجمع ما تناثر من آراء هذا العالم الرباني في إعجاز القرآن ووجوهه مقرونا بأمثلته التطبيقية، وإبراز نظرته المتكاملة إلى هذا النوع من علوم القرآن، وقد اعتمدت لتحقيق ذلك المنهج الاستقرائي التحليلي، حيث استقرأت تفسيره، ثم حلَّلت أفكاره وعباراته المتعلقة بإعجاز القرآن؛ فكان من أهم نتائج البحث: أن ابن باديس كان متذوقا لفنون إعجاز القرآن، ذا نظرة شمولية متَّزِنَةٍ لوجوه إعجازه، قد أحسن توظيف هذا العلم في تربية الأجيال بالقرآن؛ لذلك كان من أهم التوصيات: ضرورة بحث قضية إعجاز القرآن عند العلماء المصلحين من «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» ودورها في النهضة الإسلامية وإصلاح الأمة، فإنَّه جانب مهم لم يعط حقَّهُ من البحث والتحليل.

الكلمات المفتاحية:

ابن باديس، إعجاز القرآن، شروط المعجزة، الإعجاز البلاغي، الإعجاز العلمي.

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فلا زال علماء الإسلام يعتنُون بإبراز وجوه إعجاز القرآن الكريم، ويستخرجون عجائب هذا التنزيل، للدِّلالة على مصدرِهِ الربَّاني، وأنَّه كلام ربُّ العالمين، الذي يَعجز البشر أن يأتوا بمثله في نظمه وبلاغته، وأحكامه وتشريعاته، وأخباره وعلومه، فقد ألَّف علماء الإسلام في ذلك كتبًا صغارا وكبارًا.

وفي العصر الحديث الذي واكب تطورًا صناعيًّا وعلميًّا مذهلًا، كثرتْ الشُّبه والسهام الموجَّهة نحو القرآن الكريم، تَتَّهِمُهُ بالعجز والقصور، فانبرى العلماء المصلحون لبيان دلائل صدق القرآن وإعجازه الشامل، وكثُرَتْ العناية بإبراز وجوهٍ جديدة لإعجازه.

وكان من روَّاد هذا المضمار الإمام المفسِّر عبد الحميد بن باديس الصنهاجي (١٣٠٨هـ - ١٣٥٩هـ)، الذي عايش المرحلة الاستعمارية للبلدان الإسلامية، التي عمَّ فيها الجهل، حتَّى انبهر كثير من المسلمين بالتقدُّم الغربي في ميدان العلوم التجريبية وغيرها، وقلَّ الاعتناء بالقرآن تدبرا وعملا، فتوجهَت الكتابات الإصلاحية في هذا العصر إلى ردِّ الاعتبار للقرآن، وبيان علوِّ منزلته ودلائل صدقه، يظهر ذلك فيما كتبه: محمد رشيد رضا في «تفسير المنار»، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير»، وغيرهما كثير.

ولما كان الشيخ ابن باديس خِرِّيجَ هذه المدرسة الإصلاحية، كان ولا بُدَّ أن يُسْهِمَ في هذا الميدان اتباعًا لأسلافه من المصلحين، إلا أنَّ تفسيره الشفوي

للقرآن المفقود الذي لم يدوَّن منه إلا القليل، قد زَهَّدَ الباحثين في أن يعثروا على مادةٍ علميةٍ متكاملة عن إعجاز القرآن عند هذه الشخصية العلمية الفذَّة، من هذا المنطلق قمتُ باستقراءِ تفسير ابن باديس المطبوع استقراءً تامًّا، مع النظر في كتبه الأخرى[1]؛ فوجدت مادة علمية لا بأس بها في هذا الباب، ووجدتُ له إسهامًا واضحًا في بيان وجوه إعجاز القرآن، يستحقُّ أن يجمع ويُدْرَس، وأن يشاع بين الناس ويُبْرز، فكان هذا البحث بعنوان: «إعجاز القرآن عند عبد الحميد بن باديس (جمعًا ودراسة)».

الدراسات السابقة:

لقد كُتِبَ حول الإمام ابن باديس وشخصيته العلمية كتابات ليست بالقليلة، كلٌّ منها عُنِيَ بجانب من جوانب الجهود العلمية التي قدَّمها، إلا أن الموضوع الذي نحن بصدد الكتابة فيه لم أجد من أفرده بالتتبُّع والدراسة، وهو حَقِيقٌ أن لا يُهمل، فإنَّ موضوع الإعجاز القرآني أصبح مطروحًا بشدَّة في هذا العصر، الذي كثرتْ في التحدِّيات للقرآن الكريم.

وبعد البحث والتنقيب فيما كُتب حول الدرس القرآني عند ابن باديس، تحصَّل عندي بعض الدراسات حول منهجية ابن باديس في تفسيره عمومًا، تناولتْ الجهود التفسيرية لهذا الإمام، وفي ثنايا هذه البحوث، وجدتُ إشاراتٍ إلى اعتناء ابن باديس بإعجاز القرآن العلمي خاصَّة، لكن دون استقراء وتمحيص، وهذه الدراسات هي:

---

(١) مجمل كلام ابن باديس حول إعجاز القرآن في تفسيره، لذلك كانت هذه الدراسة مركزة عليه، وهناك كلام قليل متناثر في كتبه الأخرى مثل: «العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية»، و«مجالس التذكير من أحاديث البشير النذير» أشرت إلى مواضعها في البحث.

أولاً: رسالة ماجستير بعنوان: «منهجية التفسير عند الإمام ابن باديس» من إعداد: عبد الرحيم صالحي، بإشراف: د. محمد مقبول حسين. قدِّمَتْ إلى المعهد الوطني العالي لأصول الدين، جامعة الجزائر، سنة ١٩٩١م. تطرَّق فيها صاحبها إلى دراسة المنهج النقلي والعقلي في التفسير عند ابن باديس، وجعل فصلا في هذا الباب الأخير عن (مظاهر إعجاز القرآن في تفسير ابن باديس) وتكلَّم عن إعجاز الترتيب والمناسبات في مبحث، والإعجاز العلمي في مبحث آخر، ولم يتكلَّم على الوجوه الأخرى لإعجاز القرآن المبثوثة في تفسير الإمام على كثرتها، كما أنَّه أوجز القول في الإعجاز الترتيبي ولم يوضحه بالأمثلة من التفسير، وركزَّ على بيان مشروعية التفسير العلمي الذي نهجه ابن باديس.

ثانيًا: كتاب بعنوان: «عبد الحميد بن باديس مفسِّرا» لمؤلفه: حسن عبدالرحمن سلوادي. تعرَّض المؤلف فيه إلى الصور العامة لتفسير ابن باديس (من الناحية العقدية، ومن الناحية الفقهية) وفي آخره فصل بعنوان: «الصور العامة لتفسير ابن باديس»، تكلَّم على التفسير العلمي عند الشيخ، المرتبط بالإعجاز العلمي للقرآن عنده، من دون أن يعرِّج على وجوه الإعجاز الأخرى التي ذكرها الشيخ، ولا بيان التصوُّر العام لنظرية الإعجاز القرآني عند ابن باديس.

أما هذا البحث فمن شأنه أن يستقرئ وجوه إعجاز القرآن التي ذكرها ابن باديس في تفسيره وبعض مقالاته، مع ذكر التأصيل العلمي لها وأمثلتها في ثنايا تفسيره للقرآن، ثم مقارنتها بكلام غيره من العلماء، خاصَّة الذين تأثَّر بهم كمحمد رشيد رضا، والطاهر بن عاشور.

كما يهدف هذا البحث إلى إبراز النظرة الشمولية لإعجاز القرآن عند ابن باديس، وتوظيفه إيَّاها في تربية الأمة وإصلاح الأجيال ومدى أهميته في هذا

المجال، علاوة على بيان جهود ابن باديس في ميدان إعجاز القرآن ووجوهه، حيث خَلَتْ معظم الكتب المعاصرة من الإشارة إلى جهوده واختياراته في هذا المجال.

وقد سلكتُ لتحقيق هذا الغرض خطة علمية هذا هو بيانها:

۞ خطة البحث:

* **المقدمة**: إشكالية البحث، والدراسات السابقة، وأهميته، وأهدافه.
* **المبحث الأول: ابن باديس ونظرته العامة لإعجاز القرآن.**
  - **المطلب الأول: نبذة عن حياة ابن باديس.**
  - **المطلب الثاني: التعريف بتفسير ابن باديس.**
  - **المطلب الثالث: معنى معجزات الأنبياء عند ابن باديس.**
  - **المطلب الرابع: شمولية نظرية إعجاز القرآن عند ابن باديس.**
* **المبحث الثاني: أوجه إعجاز القرآن التي أبرزها ابن باديس.**
  - **المطلب الأول: الإعجاز اللغوي والبلاغي للقرآن**
  - **المطلب الثاني: الإعجاز الغيبي للقرآن.**
  - **المطلب الثالث: الإعجاز في ترتيب نزول القرآن (الإعجاز النظمي)**
  - **المطلب الرابع: الإعجاز التشريعي.**
  - **المطلب الخامس: الإعجاز العلمي للقرآن.**
* **الخاتمة: نتائج البحث وتوصياته.**

المبحث الأول

ابن باديس ونظرته العامة لإعجاز القرآن

المطلب الأول

نبذة عن حياة ابن باديس

هو الإمام العلَّامة الرئيس عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكِّي بن باديس الصنهاجي نسبًا، الجزائري موطنا. ينتهي نسبه إلى المعزِّ بن باديس مؤسس الدولة الصنهاجية الأولى، ولد ابن باديس بمدينة (قسنطينة) في ١٠ ربيع الثاني سنة ١٣٠٨هـ، الموافق لـ ٤ ديسمبر ١٨٨٩م.

حفظ القرآن الكريم قبل الثالثة عشر على يد شيخه (المدَّاسي)، وأخذ مبادئ العلوم الشرعية والعربية في محلَّتِهِ فكان من أبرز شيوخه هناك حمدان الونيسي، ثم سافر إلى جامع الزيتونة ليتتلمذ على خِيرة علمائها: كالشيخ محمد النخلي، والشيخ الطاهر بن عاشور؛ حيث نال هناك شهادة التطويع (العالمية) سنة ١٩١١م.

وفي سنة ١٩١٣م ذهب الشيخ إلى أرض الحجاز حاجًّا، والتقى هناك بابن بلده (البشير الإبراهيمي) واتفقا هناك على مباشرة العمل الإصلاحي في الجزائر بعد تخطيط طويل، فلمَّا رجع إلى وطنه باشر التعليم في الجامع الأخضر (بقسنطينة)، فختم هناك القرآن تدريسا في ربع قرن (٢٥ سنة). كما أتم هناك شرح موطأ مالك بن أنس، كما درَّس كتاب الشفا للقاضي عياض.

وكان له الفضل في تأسيس جمعيات ودور للحديث والقرآن، كجمعية التربية والتعليم، ودار الحديث في (تلمسان)، هدفها نشر العلم الشرعي المستمدِّ من الكتاب والسنة، بعيدا عن التعصُّب المذهبي والخرافات الشركية المنتشرة في ذلك الوقت.

وقد أثمرت هذه الدعوة الإصلاحية فتخرج على يديه تلاميذ كثر، من أبرزهم: الشيخ مبارك الميلي، صاحب كتاب «رسالة الشرك ومظاهره»، وأحمد حماني، ومحمد الصالح رمضان، الفضيل الورتيلاني، وغيرهم كثير.

أصدر عدَّة جرائد تُعْنى بالإصلاح أشهرها (المنتقد، الشهاب، السنَّة، الشريعة، الصراط، البصائر).

وفي سنة ١٩٣١م أسَّس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» مع ثلَّة من إخوانه المصلحين، وانتُخِبَ رئيسا لها.

وكان ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ على مذهب السلف وعقيدة أهل السنة والجماعة، فعمل على محاربة الخرافة ورد الاعتبار للوحيين، وتربية الأمة بالقرآن والسنن؛ فوجد تضييقا شديدا من السلطات الاستعمارية الفرنسية التي أحسَّت بخطر الوعي الذي ينشره؛ فصادرت بعض مجلاته وأوقفتها، وأصدرت قوانين منع تدريس اللغة العربية، فتصدَّى لهم ابن باديس بقلمه وخطبه، وظلَّ محاربا لخططهم التغريبية حتى وافاه الأجل، فكان له ما أراد حيث قامت دعوة إصلاحية كبيرة عمَّت معظم ربوع الوطن، مهدت لثورة مجيدة دحرت الاستعمار وأخرجته يجر أذيال الهزيمة، ولا يزال أثره في وطنه وإصلاح الأوضاع إلى يوم الناس هذا.

من جميل شعره بيتان شعريان من أشهر ما أثر عنه يقول فيهما:

شَعْبُ الجزَائِرِ مُسْلِمٌ ... وَإِلَى العُرُوبَةِ يَنْتَسِبْ

مَنْ قَالَ حَادَ عَنْ أَصْلِهِ ... أَوْ قَالَ مَاتَ فَقَدْ كَذَبَ

توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد حياة حافلة بالجدِّ والنشاط، وبعد أن تخرَّج على يديه ثلَّة من الرجال المصلحين، وذلك يوم: ٨ ربيع الأول ١٣٥٩هـ، الموافق لـ١٦/ ٤/ ١٩٤٠م[١].

وقد خلَّف آثارا في هذا المجال، نذكر منها بعض ما وصلنا منها:

١ - **التفسير**: «مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير».

٢ - **شرح الحديث**: «مجالس التذكير من حديث البشير النذير».

٣ - **العقائد الإسلامية** من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

٤ - **تحقيق كتاب «العواصم من القواصم»** لابن العربي.

(١) انظر ترجمة ابن باديس في: معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض (١/ ٢٨ - ٢٩). الأعلام، خير الدين الزركلي (٣/ ٢٨٩). معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة (٥/ ١٠٥). ابن باديس حياته وآثاره (آثار ابن باديس)، عمَّار طالبي (١/ ٧٢ - ٩٥). عبد الحميد ابن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي، مازن مطبقاني (ص٢٧ - ٣٦).

المطلب الثاني

التعريف بتفسير ابن باديس

لقد ذكرت المصادر أن ابن باديس لم يكتبْ تفسيرًا محرَّرًا لكتاب الله، وأما الكتاب الذي هو بين أيدينا اليوم، والموسوم بـ: «مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير» هو في الحقيقة مقتطفات من تفسيره الشفوي الذي أملاه على طلبته في دروس المسجد، طلبته في دروس المسجد، ثم أُلْهِمَ كتابة مجالس معدودة من تلك الدروس في فواتح أعداد مجلة الشهاب مسميا إياها مجالس التذكير.

والسبب في عدم كتابة ابن باديس لتفسيره أنَّه آثر المنفعة العاجلة بتفسيره دَرْسًا تسمعه الجماهير في المسجد، لتربية الجيل وإصلاحه من خلال هدايات القرآن الكريم، فمكث رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير كتاب الله تدريسًا نحوًا من خمس وعشرين سنة حتَّى ختمه سنة (١٣٥٧هـ)، ولقد وضَّح صديقه العلَّامة: محمد البشير الإبراهيمي ذلك فقال: «كان للأخ الصديق عبد الحميد بن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذوقٌ خاصٌ في فهم القرآن، كأنَّه حاسَّة زائدة خُصَّ بها، يرفده - بعد الذكاء المشرِق والقريحة الوقَّادة والبصيرة النافذة - بيانٌ ناصعٌ، واطلاعٌ واسع، وذرعٌ فسيحٌ في العلوم النفسية والكونية، وباعٌ مديد في علم الاجتماع، ورأي سديدٌ في عوارضه وأمراضه...

وكان يرى - حين تصدَّى لتفسير القرآن - أنَّ في تدوين التفسير بالكتابة مشغلةٌ عن العمل المقدَّم وإضاعة لعمر الضلال، لذلك آثر البدءَ بتفسيره درسًا تسمعُهُ الجماهير فتتعجَّل من الاهتداء به ما يتعجَّلُهُ المريض المنهَك من الدواء، وما يتعجَّلُه المسافر العجلان من الزاد، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستطيع أن يجمع بين الحسنيين لولا أنَّه كان مشغولًا مع ذلك بتعليم جيلٍ وتربية أمَّة، ومكافحة أميَّة، ومعالجة

أمراض اجتماعية، ومصارعة استعمار يؤيِّدها، فاقتصر على تفسير القرآن درسًا ينهل منه الصادي، ويتزود منه الرائح والغادي، وعكف عليه إلى أن ختمَهُ في خمسٍ وعشرين سنة، ولم يختم التفسير درسًا ودراية بهذا الوطن غيره منذ ختمه أبو عبد الله الشريف التلمساني في المائة الثامنة»[١].

ومع هذا فإن القطعة الموجودة من هذا التفسير التي طبعت مؤخرا في مجلدين[٢]، أبانتْ عن ملكة عظيمة في تفسير كتاب الله، وعن أسلوب بديع لابن باديس في تدبر القرآن واستنباط المعاني الحيَّة التي تبعث الروح في جسد الأمة، على طريقة العلماء المجتهدين في تفاعلهم مع كتاب الله، واستنباط الأسرار الكونية والهدايات الربانية[٣].

وخلاصة القول في تفسيره هذا أنه تفسير أثري إصلاحي، انتهج فيه ابن باديس طريقة تفسير القرآن بالقرآن، والسنة الصحيحة، وأقوال الصحابة والتابعين، ثم التوسع في المعاني اللغوية والنكت البلاغية لآي التنزيل، مع الحرص على إنزال هذه المعاني والهدايات القرآنية على الواقع لإصلاحه وعلاج المشكلات التي يعاني منها الفرد المسلم في مجتمعه، ومن حسن صنيعه أنه كان يبوِّب لكلامه ولا يستطرد في الكلام من غير بيان لاتجاهه، فيقول مثلا: (بيان القرآن للقرآن)، أو (تفسير نبوي)، أو (بيان وتوجيه)، أو (التراكيب)، أو (الأحكام)، ثم يذكر تحت الباب ما فتح الله عليه باختصار أحيانا، وبإسهاب أحيانا أخرى، كما كانت له عناية ظاهرة بعلم المناسبات بين الآيات وتوجيه ذلك، واستنباط الأحكام العقدية

---

(١) آثار محمد البشير الإبراهيمي (٢/ ٢٥٢).

(٢) هي الطبعة التي اعتنى بها الفاضل: أبو عبد الرحمن المحمود، والتي صدرت عن دار الرشيد بالجزائر، ودار ابن حزم ببيروت، سنة (١٤٣٠هـ).

(٣) انظر، اتجاهات التفسير في العصر الراهن، عبد المجيد المحتسب (ص٢٧٧ - ٢٧٩). تفسير عبد الحميد بن باديس منهجه وخصائصه، باي زكوب عبد العالي (ص١١٦) فما بعدها.

والفقهية والتربوية.

وقد اعتمد في تفسيره هذا على عدَّة كتب كانت مصادر لتفسيره، أهمها: تفسير ابن جرير الطبري، «أحكام القرآن» لابن العربي، تفسير «الكشاف» للزمخشري، «مفاتيح الغيب» للرازي، وغيرها، ينهل من كل تفسير أحسن ما تميز به مؤلفه، كما نجد له تأثرا واضحا بطريقة محمد رشيد رضا في تفسيره «المنار»، وإن لم يعتمده كمرجع أساس؛ لأنه لم يكمل بعد في وقته[1].

(١) انظر، محاضرات ومقالات العلاَّمة أحمد حماني، عبد الرحمن دويب (٣/ ١٥٦).

المطلب الثالث

معنى معجزات الأنبياء عند ابن باديس

لقد جرى ابن باديس مجرى العلماء قبله - في بيان معنى معجزة الأنبياء - بكونها: «أمرٌ خارق للعادة مقرونٌ بالتحدي سالم من المعارضة»[(١)]، يجريه الله على يدي نبي من أنبيائه تأييدًا له. ففي معرض كلامه على معجزات الرسل، ساق كلاما يُلْمِحُ فيه إلى شروط المعجزة عنده وبيان حدِّها، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لما أرسل الله الرسل لهداية خلقه وإقامة حجَّته أيَّدهم بالبينات، وهي كلُّ ما تبيَّن به الحقُّ من كمال سيرتهم في قومهم ووضوح بيانهم وقوَّة حجتهم، وأيَّدهم بالآيات المعجزات الخارقة للعادة المعجوز عن معارضتها، فكانوا يدْعُون الخلق بالحجج والبراهين، فإذا سألوهم آية ردُّوا الأمر إلى الله وتبرؤوا من أن يكون لهم معه تصرُّفٌ في الكون حتَّى يأتوا بالآيات؛ فيعطيهم الله الآيات تأييدًا لهم وتخويفا لقومهم فيخضع قوم فيؤمنون، ويستمرُّ الأكثرون على العناد فتحقُّ عليهم كلمة العذاب»[(٢)].

كما بيَّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الغرض من إجراء هذه المعجزات على أيدي الأنبياء، هو تأييد رسله بالبينات، وإظهار عجز مخالفيهم، فليست المعجزة ابتكارا من عندهم، بل هي آية ينزلها الله لنصرة أنبيائه، لذلك كان الأنبياء إذا سُئِلوا تنزيل بعض الآيات، تبرؤوا من قدرتهم على ذلك، وأخبروا أنَّها من فعل الله عَزَّوَجَلَّ المتعلِّق بمشيئته.

يقول ابن باديس: «وإذا قرأتَ ما قصَّهُ علينا القرآن العظيم من مواقف الأنبياء في دعوتهم لأقوامهم؛ رأيت كيف أنهم كانوا يدْعون الناس بالحجج والبراهين، والأدلة

(١) انظر، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي (٥/ ١٨٧٣).

(٢) العقائد الإسلامية، ابن باديس (ص٨٨ - ٨٩).

العقلية الجليَّة، وأنهم كانوا إذا سُئِلوا الآيات المعجزات الخارقة للعادة رَدُّوا الأمر إلى الله، ونفوا أن تكون لهم قدرة على الإتيان بها إلا بإذن الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [إبراهيم: ١١]؛ فيظهِرُ الله على أيديهم الآيات تأييدًا لهم وتخويفًا لأقوامهم، وقطعًا لمشاغبتهم، فيخضع لها بعضهم، ويستمرُّ الأكثرون على العناد، فما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطاه الله من الآيات والمعجزات ما مثله في وضوحه وظهوره، والعجز عن معارضته ما يؤمن عليه العباد، ويتفقون عليه لولا ما يصدُّهم عنه من العناد، وهو معنى قوله - صلى الله عليه وآله وسلم -: (مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ)[1]»[2].

۞ من خلال ما سبق نستطيع أن نقول إن معنى المعجزة عند ابن باديس يتضمن ثلاثة أشياء[3]:

■ **١- أمر خارقٌ للعادة:**

فلا بدَّ أن تكون المعجزة خارجة عمَّا أَلِفَهُ الناس حتَّى يذعنوا لها ويصدِّقُوا صاحبها.

■ **٢- العجز عن معارضتها:**

فمن شرط المعجزة السلامة من المعارضة، فلا يستطيع أحدٌ الإتيان بمثلها، إذ لو جاء بمثلها أحدٌ لم تصلح أن تكون معجزة.

■ **٣- لا يقدر النبي على الاتيان بها إلا بإذن الله:**

فالمعجزة لا يدَّعِي النبيُّ التصرُّفَ فيها بنفسه، بل يعلِّقها بإذن الله ومشيئته، فلا يستطيع الإتيان بها إلا أن يأذن له ربه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب: كيف كان نزول الوحي وأول ما نزل، برقم (٤٦٩٦). ومسلم: كتاب الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد إلى جميع الناس، برقم (٢٣٩).

(٢) آثار ابن باديس، جمع: عمار طالبي (٢/ ٢٢٤).

(٣) انظر، إعجاز القرآن، د. فضل حسن عباس و د. سناء فضل عباس (ص٢٠ - ٢١).

المطلب الرابع

شمولية نظرية إعجاز القرآن عند ابن باديس

يرى الشيخ ابن باديس أن المعجزة القرآنية معجزة علمية خالدة لا تختصُّ بزمنٍ دون زمن، كما لا تختصُّ بوجه واحدٍ من وجوه الإعجاز، بل هي معجزة علمية عقلية باهرة من حيث: الأسلوب والمعنى والبلاغة، والتشريع الذي يضمن سعادة البشر، والعلوم الكونية التي دلَّ عليها القرآن قبل أن تكتشف، كما يرى أنَّ التحدِّي بهذه المعجزة باقٍ مستمر ما بقي القرآن الكريم، وهذا بعكس آيات الأنبياء من قبل؛ كانت معجزات كونية لا يشهدها إلا من حضرها، يقول ابن باديس في هذا الصدد:

«آيات الرسل – صلوات الله عليهم – كانت معجزات كونية لا يشهدها إلا من حضرها، ثم تبقى أخبارا يمكن للجاحد إنكارها، ويتأتَّى للمشاغب أن يصنع من الخزعبلات والمخارق ما يموِّهُ به على ضعفة العقول ويدَّعي مُمَاثلتها، وآية النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – وهي القرآن العظيم معجزةٌ علميةٌ عقليةٌ يخضع لسلطانها كلُّ من يسمعها ويفهمها ولا يستطيع معارضتها، لا في لفظها وأسلوبها وبيانها الذي عجزت عن معارضة أقصر سوره العرب، على ما كان من حمِيَّتها وأنفتها وشدَّة رغبتها في إبطالها لو وجدت سبيلا إليها فقط – بل لا تستطاع معارضتها فيما اشتملت عليه من أصول العلوم التي يحتاج إليها البشر في كمالهم وسعادتهم أفرادا وجماعات وأمما، وما اشتملت عليه من الأدلة القاطعة والحكم الباهرة في كلِّ ما دعتْ إليه، إلى ما اشتملت عليه من حقائق كونية كانت مجهولة عند البشر حتَّى كشفها العلم في هذا العصر، مثل: بِنَاء الخلق كلِّه على أساس الزوجية في أشياء كثيرة، مصداق قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا

﴿فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فصلت: ٥٣]. فبهذا كانت آية النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أعظم الآيات وأبقاها، وكانت مغنية عن غيرها كافية عمَّا عداها، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [العنكبوت: ٥١]»[(١)].

وهذه الخصِّيصة لمعجزة نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبق (القاضي عياض) ابن باديس إلى التنبيه عليها، ولعلَّه استقاها من عنده، فقد قال في كتابه الشفا: «ومن وجوه إعجازه المعدودة كونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا، مع تكفُّل الله تعالى بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: ٩]، وقال: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ الآية [فصلت: ٤٢]، وسائر معجزات الأنبياء انقضتْ بانقضاء أوقاتها فلم يبق إلا خبرها، والقرآن العزيز الباهرة آياته الظاهرة معجزاته، على ما كان عليه اليوم مدَّة خمسمائة عام وخمس وثلاثين سنة لأول نزوله إلى وقتنا هذا»[(٢)].

والنظرة الشمولية لإعجاز القرآن عند ابن باديس تُظْهِرُ أنَّه ينحى منحى التعميم في وجه إعجاز القرآن، وهي مسألة اختلف فيها العلماء قديمًا وحديثًا[(٣)]، فمنهم من قصر الإعجاز على وجهٍ واحد، ومنهم من اختار وجهين أو أكثر، ومنهم من عدَّد الوجوه:

فذهبت طائفة من المعتزلة على رأسها النظَّام المعتزلي، إلى القول بالصِرْفَةِ،

---

(١) مجالس التذكير من حديث البشير النذير، ابن باديس (ص٣٢ - ٣٣).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض (ص١٨٧).

(٣) انظر عن المسألة: البرهان في علوم القرآن، الزركشي (٢/ ٩٣ - ٩٧). الإتقان في علوم القرآن، السيوطي (٥/ ١٨٧٩). فما بعدها. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي (ص١٢١ - ١٢٦). دراسات في علوم القرآن، فهد بن عبد الرحمن الرومي (ص٢٩٧ - ٣٠٧).

ومعناها: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم على ذلك، فالقرآن عندهم ليس معجزا في ذاته، وإنما المعجزة في منع الله لهم عن الإتيان بمثله، وهذا قول باطل يردُّهُ العقل والنقل.

وذهب بعضهم إلى أن وجه الإعجاز القرآني هو ما جاء فيه من الأخبار الغيبية التي يستحيل أن يأتي بها البشر، وقيل كذلك: إن وجه الإعجاز هو النظم القرآني المؤلف من الألفاظ والمعاني، وهو الذي تحدَّى الله به العرب أن يأتوا بمثله، وإلى هذا القول ذهب أهل اللغة والبيان، كالجرجاني والخطَّابي. وقيل: إن وجه الإعجاز هو ما اشتمل عليه القرآن من علوم ومعارف. فوجوه الإعجاز متعددة على هذا القول، فالقرآن معجز في لفظه وبلاغته، ونظمه، وتشريعاته، وأخباره والعلوم التي جاء بها مما يستطيع أن يأتي به بشر[(١)].

وهذا القول الأخير هو الذي عليه كثير من العلماء قديمًا وحديثًا، فلقد اختاره ابن تيمية، والزركشي، والسيوطي، والرافعي، وهو ما جنح إليه محمد رشيد رضا في تفسيره[(٢)]، وهو الذي اختاره ابن باديس اختيار محقِّقٍ في المسألة، عارفٍ بمذاهب العلماء فيها، فقد بينَّ أن الإعجاز في بلاغة القرآن المشتملة على النظم والأسلوب هو الأصل الذي تحدَّى الله به العرب، ثم يتسع وجه الإعجاز ليشمل جميع العلوم والمعارف المبثوثة في القرآن، التي تبيِّن استحالة كونه من كلام البشر، وأنَّه يقينًا من كلام ربِّ البشر.

---

(١) انظر، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض (ص١٧٤). الإعجاز البياني للقرآن، عائشة بنت الشاطئ (ص٦٩ - ٨٩). إعجاز القرآن، د. فضل حسن عباس و د. سناء فضل عباس (ص٣٥ - ٨٢).

(٢) انظر هذه الاختيارات في: إعجاز القرآن عند شيخ الإسلام ابن تيمية، لمحمد العواجي (ص١١٥ - ١٥٠). البرهان في علوم القرآن للزركشي: معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي (١/ ١١). إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي (ص١٣١ - ١٣٢). تفسير المنار، محمد رشيد رضا (١/ ١٦٥) فما بعدها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ موضحًا هذه النظرة: «القرآن أعجز العرب ببلاغته، حتَّى عرفوا - وعرف العلماء بلسانهم المرتاضين ببيانهم - أنَّه ليس مثله من طوق البشر، هذه هي الناحية الظاهرة في إعجاز القرآن والاستدلال به له ولمن أتي به صلى الله عليه وآله وسلم، وهنالك ناحية أخرى هي أعظمُ وأعمُّ: وهي ناحيته العلمية التي يذعن لها كلُّ ذي فهم من جميع الأمم، في كلِّ قطر وفي كلِّ زمن، وهذه الناحية هي التي احتجَّ بها في هذا الموطن؛ فقد استدلَّ على أن القرآن لا يمكن أن يكون أتى به محمد من عنده، ولا يمكن أن يستعين عليه بغيره، ولا أن يكون من أوضاع الأوائل، بأنَّه ينطوي على أشياء من أسرار هذا الكون لا يعلمها إلّا خالقه، فمن ذلك:

- **ما أنبأ به من أسرار الأمم الخالية،** وبيّن من أسرار الكتب الماضية.
- **وما أنبأ من أحداث مستقبلة،** وما ذكر من حقائق كونية، كانت لذلك العهد عند جميع البشر مجهولة؛ كالزوجية في كلِّ شيء، وسبْح الكواكب في الفضاء، وسير الشمس إلى مستقر مجهولٍ معين عند الله لها.
- **وغير ذلك من أسرار العمران والاجتماع،** وما تصلح عليه حياة الإنسان، مما تتوالى على تصديقه تجارب العلماء إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم، فكتاب اشتمل على كلِّ هذه الأسرار لا يمكن أن يأتي به مخلوق»[1].

فمن خلال هذا النصِّ نستخلص نظرة ابن باديس لإعجاز القرآن، فهو يرى أن الناحية الظاهرة التي تحدَّى بها العرب هي إعجازه البلاغي، وهناك نواحٍ أخرى أعظم تكمن في العلوم المنثورة في القرآن، التي يُسْتَخْلَصُ منها الإعجاز التشريعي، والعلمي التجريبي، والغيبي، وأسرار الكون والعمران والمجتمع،

(١) مجالس التذكر من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ١٩ - ٢٠).

فالقرآن الكريم عنده معجز من جميع هذه النواحي، يقول تلميذه (أحمد حمَّاني)[1]: «وللقرآن وجوه إعجاز لفظي وعلمي، وتاريخي وإخباري، وما زالت العصور تبين ذلك، فلا معنى لحصره في نوع من أنواع الإعجاز»[2].

قلت: وفي المبحث الموالي سأبين وجوه إعجاز القرآن الكريم التي أظهرها ابن باديس مع التمثيل لها من مظانها في تفسيره.

(١) هو: الشيخ أحمد بن مسعود بن محمد حَمَّاني الجزائري، ولد سنة (١٣٣٠هـ/ ١٩١٥م)، أخذ مبادئ العلم في المعهد الباديسي في قسنطينة، ثم ارتحل إلى الزيتونة في تونس وحصل على الشهادة الأهلية، ورجع إلى وطنه وانخرط في مجال الإصلاح والتعليم حتى قبض عليه من قبل الاستعمار وسجن وعذِّب، وبعد الاستقلال أشرف على التعليم العربي في الجزائر، وعُيِّنَ رئيسا للمجلس الإسلامي الأعلى، وبقي في مهمة الافتاء والتدريس حتى توفي سنة (١٩٩٨م/ ١٤١٩هـ). يعدُّ من تلامذة ابن باديس وحامل راية الإصلاح بعده. انظر ترجمته في: محاضرات ومقالات العلَّامة أحمد حماني، عبد الرحمن دويب (١/ ٢٦ - ٦٠).

(٢) محاضرات ومقالات العلاَّمة أحمد حماني، عبد الرحمن دويب (٣/ ١٧٤).

المبحث الثاني

أوجه الإعجاز القرآني عند ابن باديس

المطلب الأول

الإعجاز البلاغي للقرآن

إنَّ أعظم وجهٍ من وجوه الإعجاز القرآني وأظهره، هو الإعجاز البلاغي (البياني)؛ لأنَّه يشمل القرآن كلَّه بجميع آياته، وهو الذي وقع التحدِّي به في جميع سور القرآن، فما من آية إلا وفيها من البلاغة وحسن البيان ما يعجز فصحاء العرب عن الإتيان بمثله نظمًا وأسلوبًا ومعنى؛ فدلَّ ذلك على صدق نبوَّته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما جاء بهذا القرآن[1]؛ لذلك جعله الشيخ ابن باديس أقوى وأظهر وجوه الإعجاز القرآني فقال: «القرآن أعجز العرب ببلاغته، حتَّى عرفوا - وعرف العلماء بلسانهم المرتاضين ببيانهم - أنَّه ليس مثله من طوق البشر، هذه هي الناحية الظاهرة في إعجاز القرآن والاستدلال به له ولمن أتي به صلى الله عليه وآله وسلم»[2].

والإعجاز البلاغي يرجع في لبِّهِ وأصله إلى النظم المتضمِّن للألفاظ والمعاني، والربط بينها وترتيبها وطريقة تصويرها، وغير ذلك من البيان والبديع، على نحوٍ عجز العرب أن يأتوا بمثله، وهم أقدر الناس على الفصاحة والبلاغة، فوقع التحدِّي في تلك العملية العقلية التي أتقنوها في التأليف بين الكلمات والتأثير في السامع، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

---

(١) انظر عن الإعجاز البياني للقرآن: إعجاز القرآن، الباقلاني (ص٥١ - ٧١). بيان إعجاز القرآن، الخطابي (ص٢٤ - ٢٨). الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض (ص١٧٤ - ١٨٠). الإعجاز البياني للقرآن، عائشة بنت الشاطئ (ص٧٠ - ١٢٠). إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي (ص١٠٣) فما بعدها.

(٢) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ١٩).

يقول ابن باديس مبينًا ذلك: «وآية النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وهي القرآن العظيم معجزة علمية عقلية، يخضع لسلطانها كلُّ من يسمعها ويفهمها، ولا يستطيع معارضتها، لا في لفظها وأسلوبها وبيانها الذي عجزت عن معارضة أقصر سوره العرب، على ما كان من حميَّتها وأَنَفَتها وشدَّة رغبتها في إبطالها لو وَجَدَتْ سبيلا إليها فقط»[1].

ووجه الإعجاز في بلاغة القرآن وبيانه، أنَّ العرب على فصاحتها وقوَّة بلاغتها عجزت أن تُؤلِّف كلامًا يضاهي القرآن، فلا هو يشبه أشعارهم ولا أرجازهم، وقد كانوا حريصين على محاكاته حفظًا لشرفهم، فهم يأنفون الانهزام عند التحدي، ولكنَّهم لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا؛ فظهر يقينًا بعد ذلك أن كلاما بهذه القوَّة في التأثير، والفصاحة في التعبير، لا يمكن أن يكون إلا من قِبَل اللطيف الخبير، الذي أحاط بالكلام كلِّه، لفظه ومعناه، فوجب بعد العجز أن يؤمن العاجزون وغيرهم أنَّه كلام الله الذي لا يُجَارَى، وقامت الحجة على وجوب اتباع ما جاء في هذا القرآن، والإيمان بالرسول الذي بلغ كلام الرحمن.

فليس القرآن كلام محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنهم يعرفون محمدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأنَّه أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، فلقد نشأ بينهم وترعرع في أكنافهم، ويعرفون كلامه من مخالطته لهم، فالقرآن لا يشبه كلامه البشري ولا كلامهم، والأدهى من ذلك أنه مؤلَّف من الكلمات والألفاظ التي يعرفونها ويتكلمون بها، ومع ذلك عجزوا أن ينظموا نظما متناسقا في اللفظ والمعنى والأسلوب كما هو عليه القرآن الكريم، فلما بُهِرُوا ادَّعوا زورا أن هناك من يُعِينُهُ على تأليف هذا الكلام، ولقد علموا أنَّهم لن يستطيعوا الإتيان بهذا الكلام ولو اجتمعوا على ذلك، كما قال الله تعالى في

(١) مجالس التذكير من حديث البشير النذير، ابن باديس (ص٣٢ - ٣٣).

حقِّهم متحديًا لهم: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨].

يقول ابن باديس في بيان هذا المعنى: «ومن كلامه مثل كلامهم في ألفاظه وفي تراكيبه، ثم هم يعجزون عن معارضته بمثل أقصر سورة منه، ثم يشهدون الفرق بينه وبين كلام محمد نفسه؛ فهو إذا حدَّثهم بما اعتادوا من حديثه معهم، حتَّى إذا تلا عليهم القرآن جاءهم بما هو فوق كلامه وكلامهم، وما تقصر عن معارضته ألسنتهم، بهرهم هذا وهذا، وأخذ العناد بعقولهم، واستحوذتْ عليهم شياطينهم؛ فحاروا فيما يقذفون به هذا الرسول وهذا الكتاب، فأخذوا يقولون عن الكتاب: إنَّه إفكٌ مفترى!! ورأوه أكبر مما كانوا يسمعون من كلام محمد، فلم يكن ليأتي به وحده وهو فوق المعتاد من كلامه، فإذًا هنالك أقوام يعينونه، ومن هم الأقوام؟ وهو – بعد – في نفرٍ قليل ممن آمن به، وهم هم في كثرتهم وتساندهم، وقد عجزوا عن الإتيان بشيء مثله، فالقليل أحرى بالعجز من الكثير»[(١)].

وبالرغم من أن الإعجاز البياني للقرآن له ضروب يصعب حصرها، إلا أن ابن باديس اعتنى في تفسيره ببيان بعض تلك النواحي الإعجازية في التعبير القرآني، خاصَّة أنَّه معروف بنزعته البلاغية، وتذوُّقِهِ لفنون الكلام، فكان يتعرض في بعض المواضع في تفسيره لبيان هذا اللون من الإعجاز، ولا بأس أن أذكر بعض الأمثلة التي وقفت عليها:

۞ أولًا: إعجاز الألفاظ القرآنية:

إنَّ المتأمِّل في الألفاظ القرآنية يدرك إعجازًا بلاغيًا في اختيارها واستعمالها وتركيبها، وقد نَبَّهَ ابن باديس على هذا الوجه فقال في تفسير سورة الفلق، مبينًا

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ١٧ – ١٨).

الإعجاز في استعمال لفظة «الفَلَقِ» ما يلي:

«وممَّا وصف به ربُّنا نفسه في القرآن ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، و﴿فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾ [الأنعام: ٩٥]، فهُما من أسمائه تعالى، ومواقع هذه الألفاظ التي تضاف إلى كلمة ربٍّ في القرآن، كمواقع أسماء المخلوقات التي أقسم بها الله؛ كلاهُمَا عجيبٌ معجزٌ، فكلُّ لفظة تستعملُ في المقام الذي يناسبها وتناسبه، وكلُّ لفظة تبعث في الأسلوب الذي وقعتْ فيه متانة وقوَّة، وفي معناها وضوحًا وجلاء»[(١)].

ومن العجيب أن نجد الفكرة نفسها عند غيره ممن اعتنى بالإعجاز في هذه الآية، يقول محمد شيخون: «وابحث عن أيِّ كلمة أخرى تقوم مقام ﴿فَالِقُ﴾ تؤدِّي معناها وتقوم مقامها في تصوير المراد وتجسيم الفكرة، وابحث عن أيِّ كلمة أخرى تضعها موضع ﴿ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ في دلالتها على الحركة والانبثاق، وفي بثِّ حقيقة المعنى المطلوب، ثم فتِّش في اللغة كلِّها عن كلمة تضعها في مكان ﴿سَكَنٗا﴾ فيها هدوؤها، ولينها المنبعث من فتحاتها المتتابعة، وفيها ما تبثُّهُ من الصورة في الخيال والنفس، ثم ابحث ما شئت عن كلمة أخصر وأدل وأجمع من هذه الكلمة العجيبة: ﴿حُسۡبَانٗا﴾، ابحث عن كلِّ ذلك، وقلِّب الآية على ما تختاره من الوجوه، فستجد أنَّ اللُّغة كلها أعجز من أن تأتي لها بألفاظ مثلها أو خير منها، ومهما غيَّرت في الآية أفسدت من بهائها، ونقَّصت من روعتها وإشراقها، والقرآن كلُّه مثال على ذلك»[(٢)].

۞ ثانيًا: الإعجاز في قصص القرآن:

اعتنى ابن باديس ببيان وجه الإعجاز في التعبير والتصوير القرآني، عند كلامه

---

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ٣٥٠).

(٢) الإعجاز في نظم القرآن، محمود السيد شيخون (ص٦٥).

عن الإعجاز في القصة القرآنية، وكيف أنَّ القرآن الكريم كان يختصر الكلام على مراحل تاريخية مديدة بأسلوب متين وتصوير بياني عجيب، حتَّى إن القارئ يعيش تلك المرحلة نفسيًّا من قوَّة التعبير، كلُّ ذلك في كلمات معدودات، وجمل قليلة، مما لا يستطيعه أيُّ بشرٍ مهما أوتي من بلاغة وفصاحة، ولقد مثَّل لذلك ابن باديس بقصَّة سبأ في القرآن الكريم وهي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)﴾ [سبأ: ١٥ - ١٩].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينا ذلك: «ليس المقامُ مقامَ تَبَسُّط في وجوه البلاغة المعجزة التي تنطوي عليها هذه الآيات؛ فقد استوعبت تاريخ أمة في سطور، وصورت لنا أطوارًا اجتماعية كاملة في جمل قليلة أبدع تصوير، ووصفت لنا بعض خصائص الحضارة والبداوة في جمل جامعة، لا أظن غير اللسان العربي يَتَّسِع لحملها، كقوله: ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾، وكقوله: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾، وكقوله: ﴿بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ حتى إذا وصل القارئ إلى مصير الأمة التي سمع ما هاله من وصفها، واجهه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾، وأدركه الغرق في لجج البلاغة الزاخرة»[1].

ثالثًا: الإعجاز في ترتيب كلمات القرآن:

ومن وجوه الإعجاز البلاغي التي أظهرها ابن باديس البلاغة في ترتيب كلمات

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ٤١٢).

القرآن، على نسق معجز، فقال عند تفسيره لسورة الفلق: «وبعد أن يوجِّه الاضطرارُ نفوسَنا هذا التوجيه الصحيح، تندفع ألسنتنا وتقول: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق: ١، ٢]، وبهذا تظهر المناسبة الدقيقة بين ﴿رَبِّ﴾ و﴿ٱلْفَلَقِ﴾:

١- **فإنَّ ربَّ الناس ومربيهم وسائقهم إلى ما يكمل وجودهم،** هو الذي تنكشف لعلمه سرائرهم، والفلق نور يكشف للعيان كل المبصرات فترى على حقائقها ومقاديرها، لا يزيغ البصر في شيء منها ولا يطغى، والإنسان مهما يكن عالما فقد تخفى عليه حقائق من المعقولات فيزيغ فكره ويطغى.

٢- **ومناسبة أخرى، وهي أنَّ الشرَّ ظلام،** وقد أجرى الله في فطر البشر تصور الشرِّ كالظلام، وأجرى على ألسنتهم تشبيه الشرِّ بالظلام؛ ذلك أن ما يلابس إحساسهم من الأنس بالنور والبشاشة له، هو عين ما يلابسه من الأنس والبشاشة للخير، وأنَّ ما يضايقهم من وحشة الظلام وتوقع الهلاك فيه، هو عين ما يضايقهم من ذلك الشر.

هذا كلُّه في الشر على عمومه، ثم خصَّص تعالى من هذا العموم ثلاثة أنواع من الشر، لشدة تعلُّقها بحياة الإنسان وكثرة عروضها له، ويجيء أكثرها من أخيه الإنسان، ورتبها ترتيبًا بديعًا لا يستغرب في جنب بلاغة القرآن، ودقَّته في رعاية المراتب وتنسيقها في عرض الأذهان»[(١)].

رابعًا: الإعجاز في القراءات القرآنية:

ومما أبرزه الشيخ ابن باديس من بلاغة القرآن المعجزة، ذلك السرُّ العظيم في استعمال القرآن لألفاظ ذات معاني متنوعة، ويكون معنى الآية صحيحًا في

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس: (٢/ ٣٥٢ - ٣٥٣).

استعماله على جميع تلك المعاني للفظ الواحد، وهذا لا يدركه إلا من أحاط بالكلام كلِّه لفظه ومعناه، ولا يستطيعه البشر القاصر.

يقول الإمام السيوطي: «ومن المبالغة في إعجازه بإيجازه، إذ تنوُّع القراءات بمنزل الآيات، ولو جعلت دلالة كلُّ لفظة آية على حجَّة لم يَخْفَ ما كان من التطويل، ولهذا كان قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ مُنَزَّلًا لغسل الرجل، والمسح على الخفِّ، واللفظ واحد، لكن باختلاف إعرابه»(١).

ولقد نبَّه ابن باديس على هذا الوجه من الإعجاز فقال: «على أنَّه من بلاغة القرآن أنْ تأتي مثل هذه الآيات بوجوه من الاحتمالات متناسبات غير متناقضات؛ فتكون الآية الواحدة بتلك الاحتمالات كأنها آيات؛ نظير مجيء الآية بقراءتين، فتكون كآيتين، مثل قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، وقوله تعالى في آية الوضوء: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] بالنصب عطفًا على الوجه فيفيد غسل الأرجل، وتلك هي الحالة الأصيلة العامة، وبالخفض عطفًا على الرؤوس فيفيد مسح الأرجل وتلك هي حالة الرخصة عند لبس الخفاف، فتكون هذه الآية باحتمالها مفيدة تنزههم عن شهود الباطل، وعن شهادته»(٢).

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي (١/ ١٢٧).

(٢) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ١٥٤ - ١٥٥).

المطلب الثاني

الإعجاز الغيبي

من وجوه الإعجاز الذي ذكرها ابن باديس، واستنبطها في تفسيره للقرآن، الإعجاز الغيبي: وهو تلك الأخبار التي جاءت في القرآن الكريم الذي بلَّغَهُ الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، التي تتحدث عن وقائع وأحداث غاب عنها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم يحضر مجرياتها ولا علم بتفصيلاتها، ثم هو يخبر عنها خبر من حضَرَ وعَلِمَ.

والمراد بالغيب هنا: هو كلُّ ما غُيِّبَ عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أخبار الماضي: كقصص الأنبياء السابقين، وقضية نشأة الكون وغيرها، كما يدخل في الغيب الأحداث التي عاصرها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكنَّه لم يحضرها: كإخبار القرآن عن كيد الكافرين والمنافقين في عهده، وكذلك أخبار المستقبل التي جاء بها القرآن ثم وقعت كما أخبر في حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو بعد موته: كأشراط الساعة، ومصير الأمم والأفراد[1].

ووجه الإعجاز في أخبار الغيب أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أُمِّيًّا لم يقرأ ولم يكتب، ثم هو يخبر - بما أوحي إليه من القرآن - عن مغيبات في الماضي والحاضر والمستقبل، خبرًا صادقًا مطابقًا للواقع، بوصف دقيق لا يتقنه إلا من حضر تلك الأحداث ورآها رأيَ العين؛ فدلَّ ذلك أن القرآن الكريم وحيٌ من عند الله، الذي أحاط علمه بجميع الغيوب، ولا يمكن أن يكون من اصطناع البشر، لضعف مداركهم على الإحاطة بمثل هذه الأمور.

---

(١) انظر عن الإعجاز الغيبي: إعجاز القرآن، للباقلاني (ص ٣٣ - ٣٤). الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض (ص١٨٠ - ١٨٤). معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي (١/ ١٨٠ - ١٨٢). مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم (ص ٢٣٥ - ٢٦١).

يقول ابن باديس مبينًا ذلك: «فقد استدلَّ على أن القرآن لا يمكن أن يكون أتى به محمد من عنده، ولا يمكن أن يستعين عليه بغيره، ولا أن يكون من أوضاع الأوائل، بأنَّه ينطوي على أشياء من أسرار هذا الكون لا يعلمها إلّا خالقه، فمن ذلك: ما أنبأ به من أسرار الأمم الخالية، وبيّن من أسرار الكتب الماضية، وما أنبأ من أحداث مستقبلة»(١).

ولقد اعتنى ابن باديس باستنباط هذا اللون من الإعجاز في تفسيره للقرآن الكريم، من ذلك ما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ [مريم: ٩٦] حين تكلَّم عن سبب نزول الآية فقال: «كان السابقون الأوَّلون من المؤمنين في أوَّل الإسلام بمكة مبغوضين من أهل مكَّة المشركين، مهجورين منهم، مزهودًا فيهم. ومن أشدِّ الآلام على النفس وأشقها أن يعيش الإنسان بين قومه مبغوضًا مهجورًا، مزهودًا فيه، خصوصًا مثل تلك النفوس الحيَّة الأبيَّة، فأنزل الله هذه الآية تأنيسًا لأولئك السادة، ووعدًا لهم بأن تلك الحالة لا تدوم، وأنَّه سيجعل لهم وُدًّا، فيصيرون محبوبين مرغوبًا فيهم. وقد حقَّقَ الله وعده؛ فكان أولئك النفر بعدُ، السادة المقدَّمين من أقوامهم وعشائرهم، لسبقهم وفضلهم، وكانوا - وهم قادة الجيوش في الفتوحات الإسلامية - المحبوبين هم وجيوشهم، المرغوب فيهم من الأمم التي فتحوها؛ لعدلهم ورحمتهم، ورفعهم لنير الاستعباد الديني والدنيوي، الذي كانت تَئِنُّ تحته تلك الأمم، وأثبت التاريخ أن بعض الأمم الأجنبية دعتهم إلى إنقاذها من أيدي رؤسائها، فكانتْ هذه الآية من آيات الإعجاز بالإعلام بما يتحقق في الاستقبال مما هو كالمحال في الحال، فكان على وِفْقِ ما قال»(٢).

---

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ١٩ - ٢٠).

(٢) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (١/ ٣٧٣).

وهكذا عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، بَيَّنَ إعجاز القرآن بصدق وعد الله فيه، أنَّه سيمكن لعباده الصالحين، فوقع ما وعد به، فظهر الإعجاز الغيبي للقرآن بتصديق الواقع له، وتصديق الأحاديث النبوية الأخرى له كذلك، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مثل هذه الآية فيما تضمنته من الوعد الذي يقوّي به قلوبهم، ويثبت إيمانهم، ويظهر به صدق نبيه – صلى الله عليه وآله وسلم – بما أعلمه به من غيب، أحاديث صحيحة... وقد امتدَّتْ به الحياة حتَّى رأى ذلك. ومثل هذا أحاديث أخرى في الصحيح، فقد تطابقت الآيات والأحاديث في هذا الوعد»[(١)].

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (١/ ٣٩٦ – ٣٩٨).

المطلب الثالث

الإعجاز في ترتيب نزول القرآن

لم يكتف الشيخ ابن باديس باستنباط الوجوه المعتادة لإعجاز القرآن التي أفاض في ذكرها العلماء، بل أطلق العنان لقريحته ليستنبط أوجها أخرى من الإعجاز القرآني، التي لا تظهر إلا لمن تذوَّق أسلوب القرآن وغاص في معانيه، فتكلَّم عن الإعجاز في ترتيب نزول القرآن وتفريقه في تفسيره لسورة الفرقان، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ [الفرقان: ٣٢]، تجلَّى له الوجه العظيم من وجوه عظمة القرآن وإعجازه، المتمثل في كونه نزل مفرقًا على حسب الوقائع، مرتبًا ترتيبًا عجيبًا، بحيث يعالج القضايا المستجدَّة، فيؤثِّر في النفوس، ويزيل الشُّبَه[1].

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيِّنًا هذا الأمر: «وكانت الوقائع تقع، والحوادث تحدث، والشُّبه تَعْرِضُ، والاعتراضات ترِدُ... فكانت الآيات تنزل بما تتطلَّبُهُ تلك الوقائع من بيان، وما تقتضيه تلك الحوادث من أحكام، وما تستدعيه تلك الشُّبه من ردٍّ، وتلك الاعتراضات من إبطال، إلى غير ما ذكرنا من مقتضيات نزول الآيات المعروفة بأسباب النزول. وفي بيان الواقعة عند وقوعها، وذكر حكم الحادثة عند حدوثها، وردِّ الشبهة عند عروضها، وإبطال الاعتراض عند وروده - ما فيه من تأثير في النفوس، ووقع في القلوب، ورسوخ في العقول، وجلاء في البيان، وبلاغة في التطبيق، واستيلاء على السامعين، وما كان هذا كلُّه ليأتي لولا تفريق الآيات في التنزيل، وترتيلها وتنضيدها هذا الترتيل العجيب، وهذا التنضيد الغريب، الذي

(١) انظر: عن هذا الوجه من الإعجاز، نزول القرآن الكريم، د. محمد بن عبد الرحمن الشايع (ص٤٥ - ٤٦).

بلغ الغاية من الحسن والمنفعة، حتَّى إنَّه لَيَصِحُّ أن يُعَدَّ وحده وجهًا من وجوه الإعجاز»[1].

وقال في موضع آخر: «وهم لما عجزوا عن معارضة أقصر سورة منه، أخذوا يباهتون بالباطل، ويعترضون بمثل هذا الاعتراض، وأمَّا الجواب فكان ببيان حكمتين في إنزاله مُفرَّقًا: الحكمة الأولى: تثبيت قلبه صلى الله عليه وآله وسلم. والحكمة الثانية: تفريقه مرتَّبا على الواقع، وكان في تينك الحكمتين مزيَّتان عظيمتان للقرآن العظيم على غيره من كتب الله تعالى؛ فكان ما اعترضوا به على أنَّه نقص فيه عنها هو كمال له عليها»[2].

وهذه الإشارة إلى عظمة القرآن في تفريق نزوله وترتيب ذلك، قضية قَلَّ من نَبَّهَ عليها من المفسرين، ولعلَّ ابن باديس استقاها من كلام الزمخشري في تفسيره، فقد صرَّح أنَّ كتاب «الكشَّاف» هو أحد مصادره في التفسير.

يقول الزمخشري منبِّهًا على عظمة ترتيب نزول القرآن: «يعني أن تنزيله مفرقًا وتحدّيهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق كما نزل شيء منها، أدخلُ في الإعجاز وأنورُ للحُجَّة من أن ينزل كلُّه جملة ويقال لهم: جيئوا بمثل هذا الكتاب في فصاحته مع بُعد ما بين طرفيه، كأنَّه قيل لهم: إن حاملكم على هذه السؤالات أنَّكم تضلِّلون سبيله وتحتقرون مكانه ومنزلته، ولو نظرتم بعين الإنصاف – وأنتم من المسحوبين على وجوههم إلى جهنم – لعلمتم أن مكانكم شرّ من مكانه، وسبيلكم أضلّ من سبيله»[3].

---

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ٥٧ – ٥٨).

(٢) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ٥٣ – ٥٤).

(٣) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري (٣/ ٢٨٤).

كما سبق الطاهر بن عاشور – وهو شيخ ابن باديس – إلى التنبيه على هذا النوع من الإعجاز، فقال: «وثمة فائدة أخرى عظيمة لأسباب النزول وهي أن في نزول القرآن عند حدوث حوادث دلالة على إعجازه من ناحية الارتجال، وهي إحدى طريقتين لبلغاء العرب في أقوالهم، فنزوله على حوادث يقطع دعوى من ادَّعوا أنه أساطير الأولين»[(١)].

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (١/ ٥٠). و(١٩/ ٢٠). وانظر: إعجاز القرآن عند ابن عاشور، محمود علي أحمد (ص٣٤١).

المطلب الرابع

الإعجاز التشريعي

يُعَدُّ إعجاز القرآن في جانبه التشريعي من أعظم وجوه الإعجاز التي يُستدلُّ بها على مصدره الربَّاني.

والمقصود بالإعجاز التشريعي: هو تلك التشريعات والأحكام القرآنية الشاملة الكاملة المتقنة، التي جاءت لإصلاح العلاقة بين العبد وربه، وبين الأفراد والجماعات، على وجهٍ متكامل لا نقص فيه من جميع الجواب، بما يحقِّقُ المصلحة ويدفع المفسدة[1].

هذه التشريعات التي عجز البشر على مرِّ القرون على الإتيان بمثلها، أو ما يدانيها، رغم اجتهادهم في سنِّ القوانين وتعديلها، إلا أن تلك الأنظمة والتشريعات أثبتتْ فشلها، وبان عوزها، وقصورها عن تحقيق المصلحة والسعادة للبشرية، وهذا يدلُّ أن تشريعات القرآن تشريعات ربَّانية لا يمكن أن تكون من وضع البشر، بل هي من وضع خالق البشر الذي يعلم مصلحتهم في الدنيا والآخرة.

والإعجاز التشريعي ينطلق من تلك الهدايات القرآنية للتي هي أقوم في جميع مجالات الحياة، بما يحقِّقُ مصلحة العباد في الحال والمآل، المضمَّن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وهذا يشمل جانب العقيدة الذي يمثل علاقة العبد بربه، وجانب الشريعة وجانب الأخلاق الذي يمثِّل علاقة العبد بالفرد والمجتمع.

---

(١) انظر: إعجاز القرآن، فضل حسن عباس و د. سناء فضل عباس (ص٢٨١ - ٣١٣). مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم (ص٢٠٥ - ٢٣١).

يقول ابن باديس: «العقيدة الثانية القرآن كلام الله ووحيه، ودليلها: أنَّه حكيم، فما فيه من العلم وأصول العمل لا يمكن أن يكون إلا من عند الله، في عقائدِهِ ودلائلها وأحكامه وحكمها وآدابه وفوائدها»[1].

ووجه الإعجاز في هذه الهدايات والتشريعات القرآنية يكمن في كون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلًا أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، ثم هو يأتي بقرآنٍ متضمِّنٍ لتشريعات متقنة وسياسات محكمة، متكاملة فيما بينها، تنظِّم شتَّى مناحي الحياة الدينية العقدية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، على وجه الكمال لا نقص فيه ولا خلل، ما لو اجتمع عقلاءُ البشر بمختلف تخصُّصاتهم على الإتيان بمثل هذا النظام التشريعي ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، بل لقد حاول البشر على مَرِّ الأزمان وضع القوانين والتشريعات، ولكنَّهم عجزوا أن يأتوا بمثل ما جاء به القرآن من الكمال والشمول؛ فدلَّ هذا كلُّه على أنَّ هذا القرآن هو كلام ربِّ العالمين، وأنَّ تشريعاته هي أحكام العليم الحكيم، وليست من صنع البشر.

يقول ابن باديس: «وقد وضع عقلاء الأمم شرائع في بعض نواحي أعمال الإنسان، ولكنَّها بإجماع المتشرعين لا تخلو من نقصٍ واعوجاجٍ واضطراب، فهم ما يفتؤون يتعبونها بالتكميل والتقويم والتعديل على مرِّ الأيام. ولو عرضتَ كلَّ حكم من أحكامه على الأصل العام الذي ذكرناه، لوجدته منطبقًا عليه ظاهرًا فيه، حتَّى ما خفي وجهه على الأمم الأجنبية من الإسلام أيام تأخُّرها، قد ظهر لها فضله ونفعه أيام تقدُّمها، فجاء كبراء عقلائها يعترفون فيها بصواب ما شرعه فيها الإسلام. ثم هم يعجزون عن تطبيقها على أممهم؛ للعادة الغالبة والوراثة القديمة، منها: مسألة الطلاق، وتعدُّد الزوجات، وتحريم الربا تحريمًا باتًّا. فكم

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ٢٧٠).

من عالم غير مسلم صرَّح بأنَّ الحقَّ والعدل والخير للإنسانية في هذه المسائل هو ما شرعه الإسلام، على الوجه الذي شرعه الإسلام. بهذه الاستقامة التامَّة العامَّة المضطردة في شرع ما جاء به رجل أُمِّي، من أمَّة أمِّيَّة جاهلية، يجزم كلُّ عاقل بأنه ليس من وضع العباد، وإنَّما هو من وضع خالق العباد»[(١)].

وقد اعتنى ابن باديس بإبراز هذا الوجه العظيم لإعجاز القرآن الكريم في معرض كلامه على أصول الهداية التي جاء بها القرآن، عند تفسيره لسورة الإسراء، فقال: «قد أوتي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - جوامع الكلم واختُصر له الكلام اختصارًا؛ فالآية من كتاب الله، والأثر من حديث رسول الله، تجد فيهما من أصول الهداية، ودقيق العلم، ولطيف الإشارة في لفظ بيِّن وكلام بيِّن - ما فيه الكفاية وفوق الكفاية لمن أوتي العلم ومُنح التوفيق.

فهذه ثماني عشرة آية من سورة الإسراء قد أتتْ في إيجاز ووضوح على أصول الهداية الإسلامية كلِّها، وأحاطت بأسباب السعادة في الدارين من جميع وجوهها. وهي - فوق بلاغتها التي عرف العرب إعجازها بسليقتهم وأدركه علماء البيان بعلمهم ومرانهم - قد جاءت معجزة للخلق من أي جنس كانوا، أو بأيِّ لغة نطقوا، بما جمعت من أصول الهداية التي تدركها الفِطَر وتسلمها العقول. وإنَّك لست واجدًا مثلها في مقدارها وأضعاف مقدارها من كلام الخلق بجمع ما جمعت من هدى وبيان، وهذا أحد وجوه إعجاز القرآن العامة التي تقوم بها حجته على الناس أجمعين»[(٢)].

وهكذا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]. بَيَّنَ ابن باديس أن تشريعات القرآن

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ٢٧٢).

(٢) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (١/ ١٨٢ - ١٨٣).

هي شفاء المجتمعات، وأنها كاملة معجزة فقال: «... وجاء أيضًا مبينًا للأخلاق الفاسدة، وذاكرًا سوء أثرها وقبح مغبتها، مبينًا كذلك الأخلاق الصحيحة وعظيم نفعها، وحسن عاقبتها. فهذا شفاؤه للنفوس والعقول، وهو راجع إلى تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق، وبهما سلامة الأرواح وكمالها، وعليهما قوام الهيئة الاجتماعية وانتظامها. على أن القرآن هو شفاء للاجتماع البشري كما هو شفاء لأفراده؛ فقد شرع من أصول العدل، وقواعد العمران، ونظم التعامل، وسياسة الناس، ما فيه العلاج الكافي والدواء الشافي لأمراض المجتمع الإنساني من جميع أمراضه وعلله، فهذه الأمم الغربية بسجونها، ومشانقها، ومحاكمها، وقوتها، قد امتلأت بالجنايات والفظائع المنكرة التي تقشعِرُّ منها الأبدان. وهذه الممالك الإسلامية التي تقيم الحدود القرآنية: كالمملكة الحجازية، والمملكة اليمانية، قد ضرب الأمن رواقه عليهما، واستقرَّت السكينة فيهما دون سجون ولا مشانق، مثل أولئك؛ وما ذلك إلا لأنهم داووا المُلْكَ بدواء القرآن؛ فكان الشفاء التامُّ»[1].

وفي موضع آخر يبيِّنُ ابن باديس أن تشريعات القرآن جاءت لتحقيق السعادتين الدنيوية والأخروية، فيقول: «﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ فكل ما يحتاج إليه العباد لتحصيل السعادتين من عقائد الحقِّ، وأخلاق الصدق، وأحكام العدل، ووجوه الإحسان... كلُّ هذا فُصِّلَ في القرآن تفصيلا: كلُّ فصل على غاية البيان والأحكام. وهذا دعاء وترغيب للخلق أن يطلبوا ذلك كلَّه من القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم في العلم والعمل، ويأخذوا منه ويهتدوا به؛ فهو الغاية التي ما وراءها غاية في الهدى والبيان»[2].

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (١/ ٣٥٦ - ٣٥٧).

(٢) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (١/ ١٥٩).

ثم يبين ابن باديس أن أصول العلوم والتشريعات التي جاء بها القرآن، قد أعجز البشر عن معارضته، أو الإتيان بما يدانيه، فقال: «القرآن العظيم معجزة علمية عقلية يخضع لسلطانها كلُّ من يسمعها ويفهمها ولا يستطيع معارضتها، لا في لفظها وأسلوبها وبيانها الذي عجزت عن معارضة أقصر سوره العرب، على ما كان من حميتها وأنفتها وشدة رغبتها في إبطالها لو وجدت سبيلا إليها فقط - بل لا تستطاع معارضتها فيما اشتملت عليه من أصول العلوم التي يحتاج إليها البشر في كمالهم وسعادتهم أفرادا وجماعات، وأمما...»[1].

(١) مجالس التذكير من حديث البشير النذير، ابن باديس (ص٣٢ - ٣٣).

المطلب الخامس

الإعجاز العلمي

يعدُّ الشيخ ابن باديس من المؤيِّدين لفكرة الإعجاز العلمي في القرآن، بل ومن المتحمسين لها، على اعتبار أنَّه وجه عظيم وشامل من وجوه إعجاز القرآن، وأنَّه سلاح قويٌّ في هذا العصر الذي تميز بالتطور العلمي الهائل، وذلك لبيان عظمة القرآن ومصدره الرباني.

والمقصود بالإعجاز العلمي: هو موافقة الحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن الكريم، لما توصل إليه العلم الحديث من اكتشافات علمية، كانت مجهولة منذ قرون(١).

وهذا اللون من الإعجاز أغفله جُلُّ من تكلم في الإعجاز من المتقدمين، سوى بعض الإشارات المتناثرة في كلام بعض السلف، وأما ابن باديس فقد جعله أهمَّ وأعظم ناحية من نواحي الإعجاز؛ لأنَّه في نظره يدخل في إدراكه كلُّ الناس مؤمنهم وكافرهم، فهو يرى أن كتاب الله قد حوى أسرارًا للكون والفرد والمجتمع، مما لا يستطيع الاطِّلاع عليه أحد إلا مع مرور الزمن.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا ذلك: «إنَّ القرآن كتاب الدهر ومعجزته الخالدة، فلا يستقلُّ بتفسيره إلا الزمن، وكذلك كلام نبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - المبين له، فكثير من متون الكتاب والسنَّة الواردة في معضلات الكون ومشكلات الاجتماع، لم تفهم أسرارها ومغازيها إلا بتعاقب الأزمنة، وظهور ما يصدِّقها من سنن الله في

(١) انظر عن الإعجاز العلمي: دراسات في علوم القرآن، فهد الرومي (ص٣١٦). الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، عبد السلام حمدان اللوح (ص١١٥). مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم (ص١٣١ - ١٣٤).

الكون. وكم فسَّرت لنا حوادث الزمن واكتشافات العلم من غرائب آيات القرآن، ومتون الحديث، وأظهرت منها للمتأخرين ما لم يظهر للمتقدمين، وأرتنا مصداق قوله – صلى الله عليه وآله وسلم – في وصف القرآن: «لا تنقضِي عجائبه»[(١)].

والعلماء القوَّامون على كتاب الله وسنَّة رسوله لا يتلقَّونها بالفكر الخامد والفهم الجامد، إنما يترقَّبون من سنن الله في الكون وتدبيره في الاجتماع ما يكشف لهم عن حقائقهما، ويكلون إلى الزمن وأطواره تفسير ما عجزت عنه أفهامهم.

وقد أُثِرَ عن جماعة من فقهاء الصحابة بالقرآن قولهم في بعض هذه الآيات: «لم يأت مصداقها أو تأويلها بعد» يعنون أنه آت، وأن الآتي به حوادث الزمان، ووقائع الأكوان، وكل عالم بعدهم فإنما يعطي صورة زمنه بعد أن يكيف بها نفسه»[(٢)].

والذي يظهر أن ابن باديس قد تأثر في هذا بما كتبه قبله محمد رشيد رضا[(٣)]، وشيخه الطاهر بن عاشور[(٤)]. ومما يميِّز طرح ابن باديس في هذا الاتجاه تقيُّدُه بالضوابط العلمية، فهو لا يتكلَّف في تنزيل آيات القرآن على الحقائق العلمية كما وقع لغيره، فنظرته للإعجاز العلمي نظرة متوازنة منضبطة.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه الترمذي: أبواب فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل القرآن. برقم (٢٩٠٦).

(٢) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ٣٥٩ – ٣٦١).

(٣) جعل محمد رشيد رضا في تفسيره الإعجاز العلمي الوجه السابع، فقال: «(الوجه السابع): اشتمال القرآن على تحقيق كثير من المسائل العلمية والتاريخية التي لم تكن معروفة في عصر نزوله، ثم عرفت بعد ذلك بما انكشف للباحثين والمحققين من طبيعة الكون وتاريخ البشر وسنن الله في الخلق، وهذه مرتبة فوق ما ذكره في الوجه السادس من عدم نقض العلوم لشيء مما فيه». انظر تفسير المنار (١/ ١٧٥).

(٤) عدَّه الطاهر بن عاشور من وجه الإعجاز؛ فقال في تفسيره (١/ ١٤٠): «الجهة الثالثة: ما أودع فيه من المعاني الحكمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن وفي عصور بعده متفاوتة، وهذه الجهة أغفلها المتكلمون في إعجاز القرآن من علمائنا مثل أبي بكر الباقلاني والقاضي عياض».

يقول حسن سلوادي: «أمَّا عبد الحميد بن باديس فله وجهة نظر خاصَّة في هذا الموضوع، تتلخَّص في أنَّ الإعجاز العلمي في القرآن الكريم أمر لا يجرؤ أيُّ مكابر أو ملحد أن يجد موضعا للتشكيك فيه... إنَّ من يطالع رأي ابن باديس السابق في الإعجاز العلمي في القرآن، يتوقع أن يجد في تفسيره محاولات تدلُّ على نزعته العلمية في التفسير، ولكننا مع ذلك لا نجد له من هذا القبيل أي محاولات يتعسَّف بها الربط والتوفيق بين آيات القرآن الكريم ونظريات العلم الحديث، بل إن أكثر ما أورده من مسائل العلوم، لا يعدوا كونه إشارات مجملة لبعض الحقائق العلمية التي ثبتَتْ صحَّتها على وجه اليقين في هذا العصر»[(١)].

ووجه دلالة الإعجاز العلمي على مصدرية القرآن[(٢)] هو: أنَّ تلك الإشارات العلمية التي جاء ذكرها في ثنايا الذكر الحكيم، فيما يتعلق بالكون الذي يعيش فيه الإنسان من نجوم، وكواكب، وجبال، وبحار، وفي جسم الإنسان وتكوينه كذلك، بلغتْ مبلغًا عظيما في السعة والشمولية والدقَّة في التعبير، شهدت بصدقه التجارب العلمية الحديثة، وأكَّدتها الاكتشافات العلمية التي كانت غائبة عنَّا منذ قرون، وأعظم من ذلك أنَّه لم تأت أبحاث العلم التجريبي على سعتها وتطورها بشيء يخالف ما جاء في القرآن الكريم، بل القرآن الكريم أخبر في وقت نزوله قبل قرون عن أشياء يعجز عن الإتيان بها جماعة من العلماء مهما تكاملوا فيما بينهم، ومهما أوتوا من وسائل ضخمة ودقيقة، فلا يمكن أن يكون هذا القرآن الذي حوى هذه الإشارات العلمية الدقيقة إلا من عند الله عَزَّوَجَلَّ الذي أحاط بكل شيء علما، فوجب الإيمان بأنَّ القرآن كلام الله، وأنَّ النبيِّ الأميِّ الذي بلَّغ هذا القرآن رسول الله، بعثه ربُّه بالحق ليكون للعالمين نذيرا. كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ

---

(١) عبد الحميد بن باديس مفسرا، حسن عبد الرحمن سلوادي (ص١٢٢ - ١٢٣). وانظر: اتجاهات التفسير في العصر الراهن، د. عبد المجيد المحتسب (ص٢٧٧ - ٢٧٩).

(٢) انظر، مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم (ص٢٤٦ - ٢٤٧).

ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ [فصلت:٥٣]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان: ٥ – ٦].

يقول ابن باديس وهو يعدِّد نواحي الإعجاز: «وهنالك ناحية أخرى هي أعظم وأعمُّ: وهي ناحيتُهُ العلمية التي يذعنُ لها كل ذي فهمٍ من جميع الأمم، في كلِّ قطر وفي كلِّ زمن. وهذه الناحية هي التي احتجَّ بها في هذا الموطن: فقد استدلَّ على أنَّ القرآن لا يمكن أن يكون أتى به محمد من عنده، ولا يمكن أن يستعين عليه بغيره، ولا أن يكون من أوضاع الأوائل، بأنَّه ينطوي على أشياء من أسرار هذا الكون لا يعلمها إلّا خالقه، فمن ذلك: ما أنبأ به من أسرار الأمم الخالية، وبيّن من أسرار الكتب الماضية، وما أنبأ من أحداث مستقبلة، وما ذكر من حقائق كونية كانت لذلك العهد عند جميع البشر مجهولة: كالزوجية في كل شيء، وسبح الكواكب في الفضاء، وسير الشمس إلى مستقر مجهول معين عند الله لها، وغير ذلك من أسرار العمران والاجتماع، وما تصلح عليه حياة الإنسان، مما تتوالى على تصديقه تجارب العلماء إلى اليوم، وإلى ما بعد اليوم، فكتاب اشتمل على كلِّ هذه الأسرار لا يمكن أن يأتي به مخلوق»[1].

وهكذا يبرز ابن باديس جهة أخرى تظهر فيها الحجة العلمية لمصدرية هذا القرآن الرباني، وهي أن القرآن دعا إلى العلم والتعلم، والتفكر والتدبر في النفس وفي الكون والمخلوقات التي برأها، ثم بيَّن بعض هذه الحقائق الكونية في آيات القرآن الكريم؛ ليعلم الخلق أجمعين أن الذي أنزل هذه الآيات القرآنية، هو الذي أودع هذه الأسرار الكونية، فيرتبط العلم التجريبي بالوحي المنزل.

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ١٩ – ٢٠).

يقول ابن باديس: «قد دعانا الله إلى العلم ورغَّبنا فيه في غير ما آية، وأعلمنا أنَّه خلق لنا ما في السماوات وما في الأرض جميعًا، وأمرنا بالنظر فيما خلقه لنا، وأعلمنا هنا أن هذه المخلوقات أسرار بيَّنَها القرآن واشتمل عليها، وكان ذلك من حجَّته العلمية على الخلق؛ فكان في هذا ترغيب لنا في التقصِّي في العلم، والتعمُّق في البحث، لنطَّلِع على كل ما نستطيع الاطلاع عليه من تلك الأسرار (أسرار آيات الأكوان والعمران، وآيات القرآن)؛ فنزداد علمًا وعرفانًا، ونزيد الدين حجة وبرهانًا، ونجني من هذا الكون جلائل ودقائق النعم؛ فيعظم شكرنا للربِّ الكريم المنعم»[(١)].

ولقد ضرب ابن باديس في تفسيره مثالًا عمليًا بآيات أشارت إلى دقائق علمية في الكون، تبين إعجاز هذا القرآن، وأنَّه كلام الحكيم الخبير الذي خلق هذا الكون، فهو يعلم أدقَّ تفاصيله، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [يونس: ٦١].

فلقد استنبط إعجازًا علميًا في جرم القمر الذي تحدثت عنه آية الإسراء بأدقِّ تعبير وأدقِّ تفصيل، وهي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ١٢﴾ [الإسراء: ١٢]، ثم خلص إلى أن هذه الإشارة العلمية في هذه الآية التي ما تبيَّن أمرها إلا بعد قرون من تطور العلم، لدليل قاطع على أنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ مبعوث من قبل ربه بوحي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

يقول ابن باديس في تفسير هذه الآية: «المحو هو الإزالة: إزالة الكتابة من اللوح، وإزالة الآثار من الديار. فمحو ﴿ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ إزالة الضوء منها، وهذا يقتضي

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ٢٠).

أنَّه كان فيها ضوء ثم أزيل؛ فتفيد الآية أن القمر كان مضيئًا، ثم أزيل ضوؤه فصار مظلمًا، وقد تقرَّر في علم الهيئة أن القمر جرم مظلم يأتيه نوره من الشمس، واتفق علماء الفلك في العصر الحديث بعد الاكتشافات والبحوث العلمية أنَّ جرم القمر - كالأرض - كان منذ أحقاب طويلة وملايين السنين شديد الحموِّ والحرارة، ثم برد، فكانت إضاءته في أزمان حموِّه وزالت لما برد. لنقف خاشعين متذكرين أمام معجزة القرآن العلمية، ذلك الكتاب الذي جعله الله حجَّة لنبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - وبرهانًا لدينه على البشر، مهما ترقوا في العلم وتقدموا في العرفان؛ فإنَّ ظلام جرم القمر لم يكن معروفًا أيام نزول الآية عند الأمم إلا أفرادًا قليلين من علماء الفلك، وإن حمو جرمه أولًا، وزواله بالبرودة ثانيًا، ما عرف إلا في هذا العهد الأخير، والذي تلا هذه الآية وأعلن هذه الحقائق العلمية منذ نحو أربعة عشر قرنًا نبيٌّ أميٌّ، من أمة أمية، كانت في ذلك العهد أبعد الأمم عن العلم؛ فلم يكن ليعلم هذا إلا بوحي من الله الذي خلق الخلائق وعلم حقائقها»[(١)].

وهكذا بيَّنَ ابن باديس أنَّه من العقائد المتقرِّرة عند المسلمين أن القرآن وحي من الله، وجعل الدليل على ذلك الحقائق الكونية التي جاء ذكرها في كثير من الآيات التي ما اكتشفها العلماء إلا بعد زمن طويل من تطور العلم والبحث، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا ذلك: «العقيدة الثانية: القرآن كلام الله ووحيه: ودليلها أنَّه حكيم، فما فيه من العلم وأصول العمل، لا يمكن أن يكون إلا عند الله، في عقائده ودلائلها وأحكامه وحكمها وآدابه وفوائدها إلى ما فيه من حقائق كونية، كانت مجهولة عند جميع البشر، وما عرفت لهم إلا في هذا العصر الأخير.

---

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (١/ ١٥٥ - ١٥٦). وانظر: عن هذا الإعجاز العلمي في ضوء القمر في: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة، يوسف الحاج أحمد (ص٣٠٧ - ٣٠٨). ومباحث إعجاز القرآن الكريم، مصطفى مسلم (ص١٩٦ - ١٩٧).

ومن أشهرها: مسألة الزوجية الموجودة في جميع هذا الكون حتَّى أصغر جزء منه، وهو الجوهر الفرد المركب من قوَّتين: موجبة وسالبة، جاءت هذه المسألة في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩].

ومنها مسألة حياة النبات، التي جاءت في مثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ومنها مسألة تلاقح النباتات بواسطة الرياح التي تنقل مادة التكوين من الذكر إلى الأنثى، جاءت في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]. فهذه حقائق علمية كونية، أجمع عليها علماء العصر أنها من المكتشفات الحديثة، ولم تكن معلومة عند أحدٍ من الخلق قبل اكتشافها، ولا كانت عندهم الآلات الموصلة إلى معرفتها، وكفى بهذا القلّ من الكثر دليلًا على أن هذا القرآن ما كان إلا من عند الله الذي خلق الأشياء ويعلم حقائقها»[(١)].

فهذه باختصار وجوه إعجاز القرآن التي ذكرها ابن باديس في تفسيره، وفي كلامه على بعض الآيات في مقالاته، تظهر لنا مدى عنايته وتأثره بالقرآن الكريم تدبرا وعملا، وتظهر لنا أنه على خطى مشايخه في إثراء هذا الميدان وتربية الأمة بالقرآن، ورفع مكانته في قلوبهم، فرحم الله الجميع.

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ٢٧٠ - ٢٧١). ولقد ذكر هذه الأمثلة محمد رشيد رضا كذلك في كلامه عن الإعجاز العلمي في تفسيره، انظر (١/ ١٧٥ - ١٧٦).

الخاتمة ونتائج البحث

الحمد لله أولًا وآخرًا، أما بعد:

فبعد هذه الإطلالة على وجوه إعجاز القرآن التي أبرزها عبد الحميد بن باديس في تفسيره، يمكننا أن نلخص نتائج هذا البحث فيما يلي:

١- **أن عبد الحميد بن باديس** قد اعتنى عناية فائقة باستنباط وجوه إعجاز القرآن الكريم من خلال تفسيره، الذي - على صغر حجمه - أبان فيه عن نظرة شاملة متميزة في هذا الموضوع المهمِّ من مواضيع علوم القرآن.

٢- **أنَّ ابن باديس** قد أتى على بيان معظم وجوه إعجاز القرآن، ونثرها في تفسيره وهي: (الإعجاز البلاغي، الإعجاز الغيبي، الإعجاز التشريعي، الإعجاز العلمي)، بل أكثر من ذلك: استنبط وجها آخر للإعجاز وهو (الإعجاز في ترتيب نزول القرآن) وجعله قسمًا منفردا.

٣- **أن ابن باديس** له عناية خاصة بالإعجاز البلاغي اللغوي؛ لكونه ذا نزعة بيانية، متذوقة لفنون البلاغة والكلام؛ لذلك أكثر من أمثلته في تفسيره. ومما خصَّهُ ابن باديس كذلك بالعناية (الإعجاز العلمي) حيث أولاه عناية كبيرة، حتَّى إننا نستطيع أن نقول: إنَّه من فرسان هذا الميدان في عصره، حيث كان يشرح ما بدا له من نكات بلاغية في الآيات التي يعرض لتفسيرها، كما كان يصنع شيخه من قبله الطاهر بن عاشور.

٤- **أنَّ عبد الحميد بن باديس** تأثر تأثرا واضحا بما كتبه (محمد رشيد رضا) في مقدمة تفسيره عن إعجاز القرآن، كما تأثر بكتابات شيخه (الطاهر بن عاشور) في تفسيره عن إعجاز القرآن، كما نجد أنه قد تأثر بالقاضي

عياض وما كتبه عن إعجاز القرآن في كتابه «الشفا في أحوال المصطفى».

٥- **أن ابن باديس** كان موضوعيا إلى حدٍّ كبير في طرحه وبيانه لوجوه إعجاز القرآن الكريم، بعيدا عن التكلف وتحميل الآيات ما لا تحتمل، متقيدا بأصول وقواعد التفسير؛ لذلك نراه في طرحه للإعجاز العلمي متوازنا من غير إفراط ولا تفريط.

توصيات البحث

وأما عن توصيات البحث:

* **يوصي الباحث بتتبع واستقراء كامل لمؤلفات ومقالات ابن باديس،** واستخراج ما يتعلق بإعجاز القرآن، في رسالة علمية أكاديمية؛ فإن له جهودا في هذا الميدان تستحق الجمع والدراسة.
* **كما يوصي الباحث بإجراء دراسات مقارنة بين تفسير ابن باديس،** وتفسير الطاهر بن عاشور، وتفسير محمد رشيد رضا؛ لمعرفة مدى التأثر والتأثير بين علماء المدرسة الإصلاحية المعاصرة.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

١- «**الإتقان في علوم القرآن**». السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، (ط ١)، المدينة النبوية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢٦هـ.

٢- «**اتجاهات التفسير في العصر الراهن**». د. عبد المجيد عبد السلام المحتسب. (ط ٣)، عمان: منشورات مكتبة النهضة الإسلامية، ١٤٠٨هـ.

٣- «**آثار ابن باديس**». ابن باديس، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي. تحقيق: عمار طالبي، (ط ١)، الجزائر: دار ومكتبة الشركة الجزائرية، ١٣٨٨هـ.

٤- «**آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي**». البشير الإبراهيمي، محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، (ط ١)، لبنان: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٧م.

٥- «**الإعجاز البياني للقرآن**». عائشة بنت الشاطئ، د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، (د. ط)، القاهرة: دار المعارف، ١٣٩١هـ.

٦- «**الإعجاز في نظم القرآن**». شيخون، محمود السيد. (ط ١)، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٩٨هـ.

٧- «**إعجاز القرآن**». الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب. تحقيق: السيد أحمد صقر، (ط ٥)، القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٧م.

٨- «**إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني**». الخالدي، صلاح عبدالفتاح، (ط ١)، عمان: دار عمار، ١٤٢١هـ.

٩- «**إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**». الرافعي، مصطفى صادق. راجعه واعتنى به: د. درويش الجويدي، (د. ط)، بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٤هـ.

١٠- «**إعجاز القرآن الكريم عند الإمام ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير (عرضا ودراسة)**». علي صالح، محمود علي أحمد. رسالة ماجستير، السعودية، قسم التفسير، الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، العام الدراسي ١٤٣٠هـ.

١١- «**إعجاز القرآن الكريم عند شيخ الإسلام ابن تيمية مع المقارنة بكتاب إعجاز القرآن للباقلاني**». العواجي، محمد بن عبد العزيز. (ط ١)، الرياض: دار المنهاج، ١٤٢٧هـ.

١٢- «**الإعجاز العلمي في القرآن الكريم**». عبد السلام حمدان اللوح، (ط ٢)، غزة: آفاق للطبع والنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ.

١٣- «**البرهان في علوم القرآن**». الزركشي، بدر الدين بن محمد بن عبد الله. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (ط ٣)، القاهرة: مكتبة دار التراث، ١٤٠٤هـ.

١٤- «**تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)**». محمد رشيد رضا، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني. (د. ط)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

١٥- «**تفسير عبد الحميد بن باديس منهجه وخصائصه**». باي زكوب، عبدالعالي. (د. ط)، ماليزيا: مجلة الإسلام في آسيا، (م ٨)، ٢ ديسمبر ٢٠١١م.

١٦- «**دراسات في علوم القرآن**». الرومي، فهد بن عبد الرحمن، (ط ١٤)، الرياض (د.ن)، ١٤٢٦هـ.

١٧- «**الشفا بتعريف حقوق المصطفى**». القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي. تحقيق: عامر الجزار، (د. ط)، القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٥هـ.

١٨- «**مباحث في إعجاز القرآن**». د. مصطفى مسلم. (ط ٢)، الرياض: دار المسلم، ١٤١٦هـ.

١٩- «**مجالس التذكير من حديث البشير النذير**». ابن باديس، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي. (ط ١)، الجزائر: مطبوعات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، ١٤٠٣هـ.

٢٠- «**مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير (تفسير ابن باديس)**». ابن باديس، عبد الحميد بن باديس. اعتنى به وخرج أحاديثه وآثاره: أبو عبد الرحمن محمود، (ط ١)، الجزائر: دار الرشيد، ١٤٣٠هـ.

٢١- «**التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)**». الطاهر بن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي. (د. ط)، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤هـ.

٢٢- «**عبد الحميد ابن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي (ضمن سلسلة أعلام المسلمين)**». المطبقاني، مازن صلاح. (ط ٢)، دمشق: دار القلم، ١٤٢٠هـ.

٢٣- «عبد الحميد بن باديس مفسرا». سلوادي، حسن عبد الرحمن. (د. ط)، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٨م.

٢٤- «العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية». ابن باديس، عبد الحميد بن باديس الصنهاجي. تحقيق: محمد الصالح رمضان، (ط ١)، الشارقة: دار الفتح، ١٩٩٥م.

٢٥- «محاضرات ومقالات العلَّامة أحمد حماني». حماني، أحمد بن مسعود بن محمد. جمعها وأعتنى بها: عبد الرحمن دويب، (ط ٢)، الجزائر: عالم المعرفة، ٢٠١٥م.

٢٧- «معترك الأقران في إعجاز القرآن». جلال الدين السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. ضبطه وصححه وكتب فهارسه: أحمد شمس الدين، (ط ١)، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ.

٢٨- «معجم أعلام الجزائِر (من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر)». عادل نويهض. (ط ٢)، بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، ١٤٠٠هـ.

٢٩- «منهجية التفسير عند الإمام ابن باديس». صالحي، عبد الرحيم. رسالة ماجستير، الجزائر: جامعة الجزائر، المعهد الوطني العالي لأصول الدين، ١٩٩٢م.

٣٠- «موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة المطهرة». يوسف الحاج أحمد. (ط ٢)، دمشق: مكتبة دار ابن حجر، ١٣٤٣هـ.

٣١- «نزول القرآن الكريم». الشايع، محمد بن عبد الرحمن، (ط ١)، (د. ن)، ١٤١٧هـ.

الفهرس

الموضــــوع	رقم الصفحة
ملخص البحث	٢٧
المقدمة	٢٨
المبحث الأول: ابن باديس ونظرته العامة لإعجاز القرآن	٣٢
المطلب الأول: : نبذة عن حياة ابن باديس	٣٢
المطلب الثاني: التعريف بتفسير ابن باديس	٣٥
المطلب الثالث: معنى معجزات الأنبياء عند ابن باديس	٣٨
المطلب الرابع: شمولية نظرية إعجاز القرآن عند ابن باديس	٤٠
المبحث الثاني: أوجه الإعجاز القرآني عند ابن باديس	٤٥
المطلب الأول: الإعجاز البلاغي للقرآن	٤٥
المطلب الثاني: : الإعجاز الغيبي	٥٢
المطلب الثالث: الإعجاز في ترتيب نزول القرآن	٥٥
المطلب الرابع: الإعجاز التشريعي	٥٨
المطلب الخامس: الإعجاز العلمي	٦٣
الخاتمة	٧٠
المصادر والمراجع	٧٣